أحسن الإصغاء

قابلت أخيراً عالما نباتيا ممتازا فى مأدبة عشاء ولم أكن قبل ذلك صادفت أحدا من علماء النبات فظللت طول ذلك المساء جالسا على حافة الكرسى فى حين مضى هو يتحدث عن الحشيش والبطاطس والحدائق المنزلية ، وانتصف الليل ، فحييت وانصرفت فالتفت النباتى الى مضيفنا وأثنى على ثناءا جميلا ، ووصفنى بأنى أنعش نفس جليسى وانى « محدث ظريف » .

محدث ظريف ؟ انى لم أفتح فمى قط وما كنت أستطيع أن أقول شيئا لو أنى أردت الكلام الا اذا تغير الموضوع لأنى لا أعرف شيئا فى علم النبات ولكن الذى فعلته هو هذا . أصغيت بعناية وأرهفت سمعى ، لأنى كنت حقيقة معنى بما أسمع فلم يفته اهتمامى بما يقول ؛ وسره منى هذا . وهذا الضرب من الإصغاء هو خير ما تثنى به على المرء .

وهذا هو سر النجاح فى أحاديث المجتمع والأحاديث التى تدور على الأعمال أيضا . وتذكر أن الرجل الذى تتحدث اليه يهتم بنفسه وبحاجاته وأموره مائة ضعف اهتمامه بك وبأمورك . ولضرس يؤلمه أخطر شانا عنده من مجاعة فى الصين . ففكر فى هذا حين تفتح حديثا مع أحد ، واذا أردت أن يحبك الناس فأحسن الإصغاء ؛ وشجعهم على الكلام عن أنفسهم

سحر الأسماء

سألت مرة جيم فارلى عن سر نجاحه فقال : (التكد فى العمل) فقلت له . (لاتكن سخيفا)

فسألنى هو عما أظن أنه سر نجاحه فقلت . (سمعت أنك تستطيع أن تدعو . . . ر . ١ إنسان باسمه الأول)

قال . (بل أنت مخطىء ، فانى أستطيع أن أدعو . . . ر . . ٥ إنسان باسمه الأولى)

فلا يداخلك شك فى هذا فان هذه القدرة أعانت المستر فارلى على أن يجلس فرانكلين د . روزفلت فى البيت الأبيض . ولما كان فارلى يطوف فى البلاد ممثلا مصنعا للجص ابتكر طريقة يذكر بها الاسماء فكان اذا تعرف برجل بحث عن اسمه الكامل وعن أسرته كلها وعن عمله وعن آرائه السياسية وحفظ ذلك كله عن ظهر قلب حتى اذا قابله مرة أخرى استطاع أن يربت له على كتفه ويسأله عن زوجته ، وبنيه وعن الخنزير فى حديقته الخلفية ، فلا عجب اذا صار له شيعة وأتباع !

وقد أدرك فى صدر حياته أن الرجل من الأوساط العاديين أعظم اهتماما باسمه هو منه بجميع أسماء الخلق مجتمعة فاذا تذكرت اسم رجل ووسعك أن تدعوه به بلا عناء فانك تطربه إطراء فعالا ، أما اذا نسيته او اخطأت فى هجائه فانك تضع نفسك منه فى موضع لايسرك

وقد عرف اندرو كارنيجى وهو فى العاشرة من عمره الأهمية المدهشة

التى يراها الناس لأسمائهم : فاستخدم هذه المعرفة لاكتساب المعارف . وكان له عدد من صغار الأرانب ليس عندهم طعام لهم ، فقال للفلاحين من جيرانه انه مستعد أن يطلق أسماءهم على الأرانب اذا جمعوا له الكمية اللازمة من البرسيم والهندباء لاطعامها .

فكان لهذا الاقتراح فعل السحر ، ولم ينس كارنيجى قط هذه الحادثة .

وقد ربح فيما بعد ملايين وملايين بتوخى هذه الوسيلة فى أعماله . مثال ذلك أنه أراد أن يبيع قضباناً حديدية الى شركة بنسلفانيا للسكك الحديدية التى كان يرأسها يومئذ ج . ادجار تومسون . فشيد أندرو كارنيجى مصنعاً هائلا للقضبان الحديدية فى بتسبرج وسماها « مصانع ج . ادجار تومسون للصلب » .

فمن أين كان إدجار تومسون يشترى القضبان لشركة بنسلفانيا للسكك الحديدية حين يحتاج إلى شرائها ؟ .

ولما كان كارنيجى وجورج بولمان يتنافسان ويحاول كل منهما أن يتغلب على صاحبه فيما يتعلق بمركبات النوم ، تذكر مالك الحديد (كارنيجى) درس الأرانب .

وكانت شركة النقل المركزية التى يسيطر عليها كارنيجى تنافس الشركة التى يسيطر عليها بولمان : وكانت كل من الشركتين تحاول أن تحصل على امتياز مركبات النوم من شركة السكة الحديدية الاتحادية للباسفيكى . وكانت المنافسة قوية ، وكل منهما يهبط بالأسعار والقيم ، ويقضى على كل ما فى الربح . وذهب كارنيجى وبولمان الى نيويورك لمقابلة مجلس ادارة

شركة السكك الحديدية ، فالتقى كارنيجى ذات مساء بپولمان فى فندق « سنت نيقولاس » فاقترح كارنيجى ادماج شركتيهما ووصف بعبارات خلابة المزايا المتبادلة التى تستفاد من العمل معاً بدلا من التنافس . فاصغى اليه پولمان باهتمام ، ولكنه لم يقتنع كل الاقتناع . وأخيراً سأل : « وماذا تقترح أن تسمى الشركة الجديدة ؟ » فاجاب كارنيجى على الفور : « شركة مركبات پولمان بالطبع ! » .

فاشرق وجه پولمان وقال ، (تعال معى الى حجرتى ، ولنتداول فى الأمر) فكان هذا الحديث حدثاً فى تاريخ الصناعة .

ومن فرط زهو الناس باسمائهم واعتزازهم بها ، يحاولون تخليدها باى ثمن . فقبل مائتى عام كان الأغنياء يبذلون المال المؤلفين ليهدوا كتبهم اليهم . وقد مول أصحاب الملايين بعثة الأميرال بيرد الى القطب على أن يطلق اسماءهم على الجبال الثلجية .

ومن أسهل الطرق وأقربها وأسهلها لاكتساب حب الناس واشعارهم أن لهم شأنا ، أن تتذكر أسماءهم . ومع ذلك كم منا يفعل ذلك ؟ إننا نتعرف بامرىء وبحادثه دقائق ثم نودعه ولا نستطيع أن نتذكر اسمه ومعظم الناس ينسون الأسماء لأنهم لا يكلفون أنفسهم عناء التذكر وحفر الأسماء فى رءوسهم

كان نابليون الثالث يفخر بأنه يستطيع أن يتذكر اسم كل امرىء قابله أتساءل كيف كان يصنع ؟ انه كان اذا لم يسمع الاسم واضحا يقول : « انى آسف جدا لأنى لم أسمع الاسم فى وضوح » فاذا كان الاسم غريبا غير مألوف سأل عن هجائه

وكان أثناء الحديث يتكلف أن يكرر الاسم مرات عديدة ويقرنه فى ذهنه بمعارف وجه الرجل وشكله العام فاذا كان الرجل ذا شأن جشم نابليون نفسه ماهو أكثر من ذلك ، فكان إذا خلا بنفسه يكتب اسم الرجل على ورقة وينظر اليه ويركز خواطره فيه ويثبت الاسم فى ذهنه ثم يمزق الورقة وبهذه الطريقة كان يتذكر رسم الاسم مكتوبا كما يتذكره ملفوظا منطوقا

وهذا كله يستغرق وقتا . ولكن الأدب ، كما يقول إمرسون يتطلب تضحيات صغيرة

فتذكر دائما أن اسم الرجل هو أعذب وأحلى وأهم لفظ فى اللغة

سهولة التأثير فى الناس

يقول جورج هامى فى مجلة « بورلايف » كان ولدى وهو فى الثانية من عمره يجد لذة كبيرة فى رفع « كوبس الكهرباء من موضعه ثم اعادته اليه ثانية ليرقب النور وهو ينطفىء ويضىء تباعا . غير أنه حدث يوما أن سرت رعشة فى جسده لأنه لمس الأسلاك فى أثناء ذلك العمل . صحيح أن الطفل لم يصبه أذى مادى لأن الرعشة كانت خاطفة ولكنه أيقن بعدئذ أنه اذا كانت لهذا العمل الذى يأتيه لذة تذكر ، فان له أيضا نتائجة السيئة التى لاتنسى ، ومن ثم ترك الكبس فى هذه المرة

على أنه لم تكد تمضى بضعة أيام حتى أمسك الطفل ثانية بالكوبس ، ووقف يتأمل موضعه وهو يفكر فى استعادة التجربة الاولى ولكنه عدل عن الامر لأن رغبته فى رؤية النور يضىء ، تغلبت عليها رغبة أخرى فى تجنب

ضرر لحقه فى المرة الأولى ، فألقى « بالكبس » ، وانصرف الى عمل آخر تلهى به مصادفة

لقد كنت بلدى ذى بدء أجد تسلية فى تتبع هـــذه الظاهرة ولكنى فطنت بعدئذ الى أن فى هذا الحادث البسيط تفسيرا سهلا لطبيعة النفس البشرية وهو أوفى بكثير من الأسس العلمية التى يخرجها الكتاب والمحاضرون من بطون الكتب والتى كثيرا ما تبدو واضحة الصعوبة والتعقيد

وكلما نمونا وكبرنا ، وكلما تعقدت رغباتنا المزدوجة فى أتيان أعمال أخرى ترضينا فبدلا من رغبة واحدة تندفع فى اتجاه واحد (كرؤية النور مثلا) وأخرى تدفع ضررا فى اتجاه معارض للرغبة الأولى (كالرهشة الكهربائية) ، نجد أنفسنا أمام رغبات ومخاوف كثيرة متضاربة الاتجاهات ولكن الواقع — كما هى الحال مع هذا الطفل — ان الشخص ينتهى الى اتخاذ عمل معين اذا كانت مجموعة رغباته ومخاوفه التى تؤيد اتيان هذا العمل ترجح كفة جميع رغباته ومخاوفه التى تدعوه الى تجنب العمل نفسه

ورب قائل يقول ان الانسان لايخضع فى تصرفاته لسلطان رغباته الشخصية فقط فالطفل مثلا يخضع لتأثير والديه وقد لايأتى الا مايرضيهما وكذلك التلميذ بالنسبة الى معلمه والمرءوس بالنسبة الى رئيسه

ويبدو هذا الاعتراض وجيها ولكن الواقع غير ذلك فأنا — كوالد — أرى أن الطريقة الناجحة للتأثير فى طفلى هى تلك التى تتفق وتحقيق رغباته لقد كان فى استطاعتى أن أمنعه من اللعب فى « الكوبس » ، من طريق تهديده بالعقاب اذا لمسه مرة أخرى . غير أن اقلاعه عن هذا العمل مع التسليم بما

قدمنا سيكون استجابة لرغبته هو فى تجنب العقاب وليس تحقيقا لرغبة والده فى منعه عن هذا العمل . فالذى يستحسن اذن أننى أتلمس السبيل التى أشبع بها لذته فى مراقبة النور وهو يضىء وينطفىء مع عدم تعرضه للمس الكهربائى وذلك بوضع زر كهربائى يديره فتتحقق رغبته ويأمن الرعشة

وبهذا الأسلوب العملى تستطيع أن تسير عملك مع تلاميذك ومرؤوسيك

فاذا أردت تبعا لذلك أن تحقق أية حاجة تتطلب مساعدة الآخرين لك فيجب أن تدرك تماما أن الانسان لا يقدم على أى عمل ارادى قبل أن تتوافر شروط ثلاثة : فيجب على الشخص قبل كل شىء أن تحس الرغبة فى تحقيق أمر ما وأن يؤمن - أو على الأقل يأمل - بأن الأمر الذى يأتيه سيساعد على تحقيق حاجته أو رغبته وأخيرا يجب أن يستمر هذا الايمان أو الأمل فى وعى الشخص مدة كافية حتى يدفعه الى بلوغ هدفه

وكان من الامثلة المقنعة الطريقة لمحاولة التأثير بطريق التوكيد خطوة بخطوة بتوافر الشروط الثلاثة السابقة الذكر ، ذلك الاعلان الذى ظهر فى احدى صحف واشنطون وقد جاء فيه « أنه قد أصبح ميسورا أن تدفع ثمن منزل بتأجير غرفة منه ، ويسهل تأجير الغرفة اذا أعلنت ذلك فى القسم الخاص من الجريدة . اتصل برقم ... مفتوح حتى التاسعة مساء » ! .

لقد ظهر هذا الاعلان منذ أعوام طويلة حين كان معظم سكان وشنطون من موظفى الحكومة الضئيلة مرتباتهم مما دعا أغلبهم الى التفكير فى شراء منازل لهم مقابل أقساط شهرية ولم يكن يحول بينهم وبين تحقيق ذلك إلا أنهم لا يعرفون الطريقة التى تيسر لهم دفع هذه الاقساط

ولقد أشير الى هذه الحاجة فى دقة ومهارة فى الجملة الاولى من الاعلان . (لقد أصبح ميسورا أن تدفع ثمن منزل . .) ثم تأتى بعد ذلك الخطوة التالية مباشرة فى الجملة نفسها وهى ايضاح ما يمكن عمله لتحقيق هذه الحاجة « بتأجير غرفة منه ويسهل تأجير الغرفة اذا أعلنت عن ذلك فى القسم الخاص من الجريدة » ولكن اذا ترك الشخص حتى اليوم التالى ليقدم الاعلان بنفسه الى مقر الجريدة فقد يراجع الامر فى ذهنه ويؤثر الانتظار بضعة أيام وقد يعدل عن فكرة الاعلان ، فالخطوة الثالثة اذن يجب ان تكون لازمة لتوكيد تنفيذ العمل المطلوب ؛ ولهذا سهلت طريقة الاعلان وبسطته الى درجة امكان تقديمه الى الجريدة فورا (اتصل برقم . . مفتوح حتى التاسعة مساء) .

ونحن نستطيع أن نصوغ الأفكار السابقة فى ست خطوات يصح بل يجب أن نخطوها اذا أردنا التأثير فى أى شخص للقيام بشىء معين وهذه الخطوات هى :

١ ـ ابدأ أولا بعرض رغبات الشخص الذى تريد التأثير فيه ثم اقترح طريقة لتحقيق هذه الرغبات . وذلك بأن يقوم هو بالعمل الذى تريده أنت دون أن تشعره بحقيقة مقصدك . وحاول بعدئذ أن تحسن اختيار الرغبات التى يتفق فيها مختلف الافراد . وتخصص بالذكر مثلا رغبة الانسان فى أن يكون موضع اعتبار وتقدير من الغير . ثم أعرض سائر الرغبات الشخصية التى تؤدى إلى استنتاج حاجة هذا الشخص اليها كرغبته فى قبوله بمدرسة . أو ادخال بنت له فى معهد

أو شراء شيء معين . . وغير ذلك .

٢ - وضح له بعد ذلك في دقة وحزم أن اداءه العمل الذي اقترحته عليه سيحقق له رغباته وحاجاته الشخصية . او يساعده على الأقل في تحقيقها

٣ - حاول ان تتحين الوقت الذي يكون فيه الشخص على استعداد لتقبل آرائك او حاول ان تشعره بالارتياح من ناحيتك قبل ان تطرق الموضوع . وقد اعتاد الناس ان يبدأوا احاديثهم ورسائلهم بما يشعر الغير انهم ذوو اهمية واعتبار . ولكن حذار من المديح الظاهر التكلف . فانه ينفر الشخص الحساس

٤ - اشرح مقصدك مراعيا دائما ان تقدم حاجته على رغباتك .

٥ - حاول ان توحي اليه الشعور بالسلطة والقدرة على تحقيق حاجاته (عن طريق القيام بما تريده)

٦ - اذا لم توفق الى هذا عمليا . او كان العمل الذي تريد القيام به يستدعي مجهودا متتابعا . فانتهز الفرصة بين وقت وآخر لتحيي الفكرة في ذهنه

اذا اتبعت هذه الخطوات الست فلا شك في انك قادر على التأثير في غيرك ولو كان يكبرك عمرا . او كانت علاقتك به لا توحي بذلك . كأن يكون والدك او معلمك او رئيسك في العمل

قم اذن بتجربة ما وتقـــدم خطوة خطوة فى وعى وتقدير مدة أسابيع قليلة وسوف تجد أن النتائج التى تصل اليها ستعوضك عن التفكير أو الوقت أو الجهد الذى بذلته فى تحقيقها

تستطيع أن تكون شيئا وأنت وحدك

قالت « مارى إلن تشيس » أستاذة الأدب الإنجليزى بكلية سميث ومؤلفة كتاب « الرسالة الطيبة » فى مجلة « ليل » مايأتى :

« منذ اثنى عشر عاما تقريبا ذهبت الى انجلترا ـ الى اقليم كورنوول فيها ـ وحدى وكانت الرحلة بمثابة تجربة . وأعترف صراحة أنى وان كنت قد أحببت دائما أن أنفرد بنفسى ساعات . بل أياما ، الا أنى جعلت أنظر الى قضاء صيف كامل فى بلد غريب بشىء من القلق . وقد اصطلحت على نفسى كل دواعى القلق العادية كأن أمرض وأنا وحيدة أو يقع لى حادث وأنا مستفردة . وشر من ذلك كله ما كنت أجده من الوحشة . ولكن عزمى صمم فنحيت ذلك كله عن ذهنى ، وسافرت ، وكانت لى حجرة خاصة ومائدة لايشاركنى فيها أحد

وبدأت افطن الى المزايا المستفادة من الوحدة . ويقول هازليت : « ان مزية السفر هى ان يكون المرء حراً فى ان يفكر ويحس ويعمل كما يحلو له » فكنت اقرأ كما اشاء واسلخ من ساعات الليل فى المطالعة

ماأسلخ واغسى فى حجرتى على هواى ولا ابالى ان اخرج عن النغم ؛ واعفانى ذلك من الدعوة الى المشاركة فى الالعاب على ظهر السفينة ، وهو مالا احسنه . واتسع وقتى للتفكير فى حوادث العام الماضى وفى التدبير للعام القادم - وتسنى لى ان اوازن بين وجهات النظر المختلفة فى كل موضوع يخطر على البال وان استقر على رأى لى صريح فى كل منها . واستطعت ان انظر الى نفسى واتأملها كأنى كنت احلل شخصا آخر بلا حاجة الى مغالطة النفس

وقضيت ساعات ذات يوم احاول ان اتذكر ماصنعت واين كان ذلك فى اجازات الصيف فى السنة والعشرين عاما الماضية فكان من اثر هـــذا المجهود ان ادركت مبلغ الغموض الذى يغشى معظم تجاربنا لا لأنها ليست بذات قيمة بل لأننا لم نعن بتقديرها فى حينها او بأن نتذكرها ونحياها كرة اخرى فى السنين التالية . وفى يوم آخر نشرت ما انطوى من حياتى اذ انا طفلة صغيرة واخرجت من ظلمة الماضى الأشياء والأشخاص والأماكن والملاهى التى اشتركت فى تكوينى وكان مما يسلينى فى الأسابيع التالية ان التقى بنفسى وانا فى الخامسة من عمرى او العاشرة او الثالثة عشرة واعرف كيف كانت اذواقى ورغباتى وعاداتى واهوائى يومئذ وان ادركها كما لم اكن افعل من قبل .

ولما دنونا من « سوثمبتون » ادركت فجأة وانا مشاكرة ، انه ليس ثم

أحد احتاج أن أشاوره وأن أرتب الأمر معه . ففي وسعي أن أتاسكا في « الغابة الجديدة » أسبوعا اذا أحببت، وأن أرقد تحت شجرة وأنام . وخطر لي أني ما كنت قط سعيدة بالمعنى الصحيح من قبل ، وظلت هذه النشوة معي طول الصيف على الرغم من لحظات وحشة عارضة تمر بنا جميعاً ويكون من فضلها أن تزيد ، لا أن تنقص ، ما نشعر به من الاغتباط والرضى

وسأظل دائما أذكر وأحمد تلك الأيام الطويلة في كورنوول وقد كان تعاقبها في سكون يكسبها قوة ويجعل لها شخصية كأنها افراد ، وكانت تبدو لي كأنها اشخاص نادرة نعتاد ان نسكن اليها ونعتمد عليها لأنها مألوفة عندنا وان كانت جديدة دائما

وكنت في الأصباح الطويلة البطيئة اقعد على ربوة تطل على بحر كورنوول الذي لا يهدأ وامضي في القراءة . ولم اكن جلبت معي سوى ستة كتب ستة استطيع ان اقراها وان اعيد قراءتها : شعر فرجيل ، وجمهورية افلاطون والإلياذة والأوديسا لهومر ومختارات اكسفورد من النثر الإنجليزي ، ومختارات بلجريف من الشعر الإنجليزي . ولم أفرغ من هذه الكتب قط . فقد كنت ارفع عيني عن الصفحة كلما أردت وافكر فيما قرات وعيني على الأفق البعيد الذي يتصل عنده البحر بالسماء

وفي العصر كنت اتمشى وحدي ، واقطع اميالا فوق العشب

الأخضر وبين الأشجار المتوشحة واشتريت كتبا عن الطيور والازهار الإنجليزية وخرجت فى رحلات استكشاف وارتاد . وكنت اشرب الشاى مرة هنا ومرة هناك وفى حدائق الأكواخ حيناً ، وحيناً آخر على جانب هذا الجدول او ذاك (١)

والمرة الاولى فى حياتى كانت يدى قابضة على ناصية الزمن وكان ينسل ويتفلت ويناى عنى . ولكنى كنت حاضرة وهو يذهب ويمضى عنى فأراقبه واقول :

« انك لم تهرب منى . ولقد جدت على بهباتك واستطعت انا للمرة الاولى ان آخذها . والساعة الآن الخامسة بعد الظهر وسأذكر دائما هذا الطائر الصغير وهو يلقط بمنقاره قطعاً من كعكتى ونور الشمس على الخليج المتورد وذلك الغدير الساكن »

ولمن شاء وهو مسافر وحده . ان يخاطب الاغراب ، واذا آثر ان يجتنبهم فلن يدرى احد انه احجم . على ان المسافر وحده يسهل عليه ان يكتسب اصدقاء كما لا يسهل على من يكون فى رفقة منهم ، لانه يسترعى اليه انظار الغير ويثير اهتمامهم وفى وسعه ان يتقبل مايتفضلون به عليه او ان يعتذر ويأبى .. فإنه حر

وذهبت عنى الوحدة فى خلال هذا الصيف الذى قضيته وحيداً ،

---

(١) المختار

ولم تعد الى ثانية وحل محلها عزم مصمم على ان احتفظ من كل يوم ، وبأى ثمن بنصف ساعة على الأقل أقضيها فى خلوة تامة بنفسى وتبينت أن القراءة أقل غناء من إعادة القراءة وأن فقرة جيدة يعيد المرء قراءتها مرات أنفع وأجدى على العقل والروح معا من كتاب بأسره يعبره المرء خطفاً . ووجدت أيضا أن النظر إلى شجرة واحدة عشر دقائق يكشف لك عن شخصية كانت من قبل محجوبة حجبا تاما وإن رقعة صغيرة من الساحل الوعر المتعرج يمكن أن تظل تتجدد لك كلما ألقيت عليها عينيك المنقبة . عرفت أن مجرد الانتظار فى سكون ، وبدون تفكير فى الظاهر ، يجيئك لاحمالة بثمرة مفاجئة شهية . واستفدت علما جديداً بنفسى ، وبمالى من مزايا ، وما فى من مواطن ضعف فيما يتعلق بعمل فى الحياة

وأحسست أنى تجددت حين عدت من كورنوول ، فقد صح بدنى وأخذت قوة من السير الطويل تحت الشمس وفى المطر وأصبحت لى فى رأسى ملاجىء أعوذ بها وأحتمى وأتراجع اليها كلما أحسست بالحاجة إلى ذلك ـ آراء جديدة أو قديمة اكتسبت قوة ، وفهم جديد وإدراك حديث وذكريات طريفة . واكتسبت من الوحدة احتراما جديدا للغير وتقديرا غير معهود لاضطراباتهم وقلقهم ، وصرت أستطيع أن أنظر إلى أصدقائى نظرة تقدير جديد ، لأنى غبت عنهم ، ولأنى أيضا فهمت نفسى فهما جديدا . وشعرت للمرة الأولى بالقدرة على معالجة

المطالب التي لاتحصى لحياة العمل ، وأقول متواضعا إني شعرت للمرة الاولى أنه صار عندي ما أمنحه الغير من الهبات والالتحاف التي فزت بها على غير انتظار . ولم يتيسر لي من قبل ان أفوز بصيف كامل أقضيه وحدي . على أني قد تبينت أن اسبوعين ليس إلا ، يستطيعان ان يضاعفا ايامهما وساعاتهما إلى غير نهاية . ولست ادع يوما واحداً ينقضي دون ان اظفر منه على الاقل بنصف ساعة من الوحدة . وقد اقضي نصف الساعة في النظر إلى الثلج وهو يسقط ، او اناجي نفسي بما حفظته قديما مما لايمحى ولا يبلى وفي التفكير او عدم التفكير ، فينشط عقلي وينتعش ، وتقوى روحي

وينبغي ان تمنح كل اسرة اعضاءها فترة من الوحدة ينمون فيها شخصياتهم الفردية . واخلق بمن يحفون بالموقد ان يكون اجتماعهم اطيب وادعى الى الرضى ، إذا كانوا يقضون بعض الوقت كل يوم منفردين . واحر بالاسرة حين تخرج تتنزه معاً ان تفيد مسرة جديدة إذا كان اعضاؤها يجدون مايشجعهم على الخروج وحدهم احيانا

والازواج يستعيدون شخصياتهم والشعور بها كأفراد لا كأزواج مرتبطين اذا كان كل من الزوجين يذهب وحده بين حين وحين فيعود الذي فعل ذلك وقد صار عنده مايتحدث به بلهجة الثقة التي يكسبه اياها لاحالة ان امره كان اليه دون مشاركة . واذا نأى الزوج عن زوجته ، او نأت هي عنه ، شهراً ، كان ذلك خليقا ان يزيد سعادة

الاجتماع مرة اخرى ويجعل حياتهما معا احفل بالحب

ولقد ألفت الكتب واصحابها خالون لأنفسهم وينبغي ان تقرأ وتدرس في خلوة وصورت الصور في حالة الخلوة ايضا ، ومهما بلغ من اعتمادنا على رأى الغير فيها ، فإن آراء الغير لايجعلها تتبدى لنا وسيظل الفن والموسيقى سرا اذا كنا نذهب الى المعارض جماعات او ان نشهد الحفلات الموسيقية جماعات . ولن تكون للطير المغردة فرق الحقول الامريكية معنى إلا اذا ذهبنا وحدنا انراها تحلق في الجو وتصدح في نور الشمس

وقد خرجت امس أتمشى في الريف مسافة طويلة وكنت وانا انظر الى الطيور الخفاقة الجناح واسمع تغريدها وسجعها أفكر في حبة الإنجليز القوى للطيور التي يعدها سائتايانا رمزاً للروح الإنجليزية وعنوانا عليها : وعجبت لماذا لايكون لكل الامم مثل هذا الحب العميق للطيور والزهر والشجر التي في بلادهم فإن العشب في نظر الاسكتلندي جزء من نفسه ، فلماذا لاتكون وجوه ارضنا رموزاً وعناوين لوطننا وبعضنا منا لايتجزأ ؟

واكثرنا لاينشد كنوز الريف من تلقاء نفسه ونحن إما اننا لم نعتد ان نكون وحدنا أو اننا نخشى ذلك فعلا وقد اعتدنا زمانا طويلا ان نأكل ونتحدث ونتحاور ونتجادل ونفكر ونغني بل نقرأ ايضا جماعات حتى صرنا نشعر بالحيرة ولاندري ماذا نصنع بعقولنا

أو بدائنا حين نكون وحدنا . وأصبحنا جمهوراً لاشخاصا والذى كان فيما مضى فرديا فينا قد شمشع ورقرق بالجماعة حتى فقد القوة واللون

وبذهاب الشجاعة ذهب الكثير من الكرامة الشخصية فلسنا نثق بآرائنا واحكامنا وأصبحنا لانجرؤ ان نمدح او نذم كتابا او صورة او شخصا او فكرة الا بعد ان نتلفت حولنا عسى ان يكون هناك من يؤازرنا إذا كنا على الجانب الآخر غير المقبول . ولم تعد لنا قدرة على اعتصار خلاصة التجارب لمشاركة غيرنا لنا فيها وبهذه المشاركة لم تعد تجاربنا نحن

فإذا أردنا ان نعيد الالوان الى شخصياتنا الباهتة والحيوية الى عقولنا الفترة . فإن علينا ان نعمل ونفكر وحدنا . وان نحاول ان نكون شيئاً . واذا اردنا ان نستفيد من عالم التجـــارب والناس مايقدمه الينا ذلك العالم فإن من واجبنا أن نكثر من اعتزاله وان ننشد تجارب جديدة فى انفسنا . فإن بنا حاجة الى استمداد القوة والثقة بأنفسنا من قوة اعظم منا لاسبيل الى الفوز بشيء من فيضها الا بالعزلة من حين الى حين

كيف تكتسب الاتزان العاطفي

يقول « جيمز جوردن جيلكي » عن كتاب « افضل الخطب . مختارات ١٩٤٤ » : لنفرض انك سريع الاضطراب . وانك يسهل ان تخرج عن طورك الى الاهتياج . ولنفرض انك تود ان تؤتى القدرة على ضبط النفس ـ فهل في وسعك ان تكتسب الاتزان العقلي والعاطفي واذا كان هذا في الوسع فكيف السبيل اليه ؟

قد تكون مصاعبك مما يتطلب طبياً او نفسانيا ولكن اذا كانت اقل تعقيداً وايسر علاجا . فإن عليك ان تتذكر ثلاث قواعد لإفادة الاتزان العاطفي مستمدة من التجربة الانسانية الطويلة المرة

الاولى هي هذه : تصور حياتك الخاصة تصويراً صحيحا . ان معظمنا يتصور نفسه واقفاً مكدوداً بلا معين في مركز دائرة حافلة بالمهمات والاعباء والمشكلات والمنغصات والتبعات التي تهجم علينا . ففي كل لحظة يكون علينا ان نعمل عشرة اعمال مختلفة . وان نحل عشر مسائل . وان نتحمل عشرة اعباء مجهدة . فنحن نتمثل انفسنا مجاهيد مثقلين مرهقين

وهذه صورة عقلية شائعة وهي خطأ في خطأ . فما لاحد منا مهما بلغ من ازدحام حياته مثل هذا الوجود

فما هي الصورة الحقيقية لحياتك ؟ تخيل أن على مكتبك ساعة رملية زوالية ، بين طرفيها المكورين أنبوبة موصلة دقيقة لاتنفذ منها سوى حبة مفردة من الرمل في وقت واحد (١)

هذه هي الصورة الحقيقية لحياتك حتى في يوم مكتظ غاية الاكتظاظ فالساعات المزدحمة تجيء اليك دائما لحظة بعد لحظة وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها أن تمر وتنفذ . وقد يجيء اليوم بمهمات ومسائل ومتعبات عديدة ولكن هذه لاتأتي أبدا إلا على صورة وقت مفرد واحدة وراء واحدة

فأنا مثلا قد يكون علي أن أقوم بمئة عمل قبل الليل ولكن هذه الاعمال لاتأتي إلا واحدا إثر واحد ، ففي وسعي إذن أن أكف عن التفكير في تعاقب المستقبلة وأن أنفي من ذهني الشعور بالإجهاد الذي ينشأ من تلقاء نفسه إذا تصورت أن مهمات تجيء كلها في وقت معا . وهكذا أستطيع أن أمضي في طريق خلال اليوم في هدوء تام — فأحيا لحظة لحظة ، وأؤدي الأعمال واحداً واحداً ، وأواجه المسائل واحدة واحدة

أتود أن تكتسب الاتزان الباطني ؟ تذكر إذن الساعة الرملية وحبات الرمل التي تسقط حبة بعد حبة فان هذه هي الصورة الحقيقية لحياتك

والقاعدة الثانية هي : قلل مطالبك من الناس . ما هي هذه المطالب ؟ إن أحدها هو الرغبة في الالتفات إليك والثناء عليك . والاطفال الصغار يطلبون ذلك جهرة وفي غير استحياء ، ونحن الكبار نطلب ذلك خفية ، وقد

---

(١) المختار

لا نفعل ذلك ونحن مدركون له ولكننا جميعا نزينه دائما فليس فى وسعنا أن نطيق الإخفاق

فهل تجاب هـــذه المطالب ؟ وهل نفوز فى الواقع بالالتفات والثناء والإعراب عن الشكر ؟ إننا فى السعادة لانظفر بذلك ، وهذه هى الواقعية الأليمة . وترانا إذا لم نفز بكل مانرى أننا نستحقه (والذى نستحقه فى حالات عديدة) يعترينا الاضطراب العقلى والعاطفى

والسبيل إلى اتقاء هذا الاضطراب الباطنى أن نتوقع قلة الثناء وقلة التقدير . وقد قرأت منذ سنوات مقالة بهذا العنوان الغريب « صيد السمك الذى لايوجد فى البركة » . فمعرفة أى الأسماك ليست هناك ، والكف عن محاولة صيدها ، هذه هى السبيل إلى إخفاء النفس من عناء كثير لاثمرة له ، ومن آلام كثيرة مرة

والقاعدة الأخيرة هى : حاذر أن تتضاءل دنياك مهما كلفك ذلك من جهد ، فان كثيرين منا إذ ترتفع بهم السن يدعون دنياهم تضمر وتتضاءل ، وأخيرا يجىء يوم نلقى فيه أنفسنا نحيا فى نطاق تعس ضيق لايحيط بنا فيه سوى احساساتنا وما يبتعثها . وقد وصف روائى مثل هذه الشخصية فقال : « إديث بلد صغير يحده من الشمال والجنوب والشرق والغرب ، إديث »

وكثيرون من الذين يقع لهم هذا لايدركون أنه يقع لهم ، ويقولون لأنفسهم إنهم يكبرون وأن قوتهم لم تعد كما كانت وأنه ينبغى لهم أن يختصروا تبعاتهم ومن أجل هذا يتخلون عن معظم وجوه نشاطهم ويأبون أن يحاولوا أى جديد

وهكذا يصبح الواحد منهم شيئا فشيئا ودون غير أن يفطن إلى ذلك مركزاً فى ذاته وتكون النتيجة ن يعروهم الاضطراب من الوجهتين العقلية والعاطفية معظم الوقت . فلماذا ؟ لأنهم يفكرون دائما فى أنفسهم ويعيشون لأنفسهم وحدها ؛ فهل تود أن تتقى الاضطراب العقلى والعاطفى

سر العبقرية وتسميتها

يقول « بروس بليفن » من مجلة « نيوريببلك » ما السبب فى اختلاف حظوظ الناس من الذكاء اختلافا بينا ؟ وما السر فى أن من الناس الجرىء الماضى ومنهم الحيى الهياب ومنهم من يبدو أنه خلق تحدوه الرغبة فى قيادة الناس تحت إمرته ، ومنهم من خلق ليكون تابعا مطيعا ، ومنهم المتغطرس المغرور ومنهم الخاشع المتواضع ؟ وبعد ؛ فلم يكون فى الناس من حين إلى حين أفذاذ موهوبون مثل ميخائيل أنجلو وشكسبير وأينشتين ؟

إن العلم لايعرف حتى اليوم جواب هذه الأسئلة ، ولكنه أصبح الآن أدنى إلى سر هذه الأحجية الغامضة ، فقد وقفت معامل الأبحاث على دلائل قيمة تتصل بهذا الموضوع

إن معظم ما بلغه البشر فى تاريخهم من رقى وتقدم إنما تم على يد نفر ذوى مقدرة فذة يستحقون بها اسم العباقرة . والعبقرية الحقيقية وليدة شيئين متلازمين : وراثة صالحة مواتية . وبيئة صالحة مواتية . وبخاصة فى فجر الحياة ويرى العلماء أن الذكاء موروث فى الغالب ولو أنهم لم يصلوا بعد إلى الجزم بهذا الرأى فاذا غيرته البيئة فرد ذلك فى معظم الأحوال إلى أن

الفرد لا يدع نفسه تستفيد تمام الفائدة من محيط أحاط به ، أو من أحوال مرت عليه . وأما الشخصية فهي تقريبا وليدة عوامل البيئة ولا سيما في زمن الطفولة وفي ميعة الصبا . وقد تكون ثمة عوامل وراثية غير الذكاء وحده ، ولكن العلم يرى أن لا خطر لها ولا شأن اذا هي قورنت بما يكون من تقليد الصغار للكبار أو بالنظام أو بما يطلع في قلب الصغير من حب لبعض الناس أو نفور من آخرين

واعلاء شأن البيئة وتعظيم خطرها انما هو اتجاه حديث اتجه اليه العلم . فقد كان كثير من العلماء منذ وقت غير طويل يميلون الى أن ينظروا إلى الانسان كأنه آلة مركبة وحسب فهو عندهم مخلوق تصرفه غدده كما تكون . وقد قال طبيب نفساني : « لقد كنا نسمع شيئا كثيراً عن أن الغدد تسيطر على الشخصية ونستطيع اليوم أن نقول إن الشخصية هي التي تسيطر على الغدد ويكون كلا القولين سواء في الصحة ، فان كلا منهما يؤثر في الآخرة تأثيرا خفيا عميقا » . وهذا العلم الجديد يجعل البيئة الأولى تبدو على أعظم جانب من خطر الشأن ويجعل من الضروري أن يقدر المجتمع الأفراد ذوي المواهب الفذة وهم في فجر حياتهم

ومن عادة الناس أن يصفوا الشخص الحاد الذكاء بأنه عبقري دون نظر الى ما أتاه من أعمال وحتى العلماء يقولون ذلك أحيانا وهم غافلون وإن كانوا يؤثرون دائما أن يصفوه بأنه « شخص موهوب » . واذا تجوزنا واستعملنا التعبير العام قصد التيسير ، فكل شخص يزيد ذكاؤه بمقدار ٤ في المئة على ذكاء عامة الناس يعد عبقريا . ويكاد العبقري يولد دائما من أبوين على حظ

عظيم من الذكاء ويكون أولاده عادة ذوى ذكاء ممتاز . بيد أن العبقرية لا تلد العبقرية ضربة لازم (١)

وفى الولايات المتحدة اليوم ، طبقا لهذا التعريف ، ما يزيد على مليون شخص يعدون عباقرة منهم ٣٧٠٠ شخص تقريبا فى أعلى مراتب الذكاء . ولا تزال مواهب آلاف منهم خافية لا يقدرها أحد ، ولا يزال ما يدخل فى طاقتهم الاتيان به ، مضيعا كله أو بعضه . ويظل بعضهم طوال حياته حتى الممات مجهولا خامل الذكر فى المجتمع ولا ينال من ثناء الناس عليه إلا قولهم « خسارة أن يكون هـــذا جامع فضلات ! » . أو « إنها تحفظ ما يزيد على المئاتة طريقة لطهى الطعام عن ظهر قلب دون أن ترجع الى الكتاب ! » . ولعل صحة هذا تبدو واضحة جلية من تجربة حديثة أجريت فى حى الزنوج فى شيكاغو حيث جمعوا ٨٠٠٠ طفل كيفما اتفق واختبروا ذكاءهم فظهر أن أكثر من مائة منهم قد بلغوا مرتبة عالية من الذكاء ، وأن ٢٩ من هؤلاء الزنوج على جانب من الذكاء يؤهلهم لأن يكونوا عباقرة

والآن كيف يستطيع العلماء أن يقدروا عدد العباقرة ؟ وما هو المقياس الذى يقيسون به القوة الذهنية العالية ؟ يقول العلماء لتقريب المسألة ووضع تعريف عام إن الذكاء الخارق للعادة يقتضى حظا كبيرا من قوة الذاكرة ، ومواهب عظيمة لتنسيق الأفكار وقوة فى المنطق ومقدرة على استدعاء هذه جميعها عند الحاجة . وقد أخذ المتخصصون منذ سنين يضعون أسئلة إذا ألقيت على عدد كبير من الناس تبين من جوابها مقدار ذكاء كل منهم وهى أسئلة بسيطة وأحجيات سهلة واختبارات للذاكرة كالقدرة على تكرار سبعة أرقام أو ثمانية تقرأ كيفما اتفق . وقد وجد العلماء بعد مئات الآلاف من

(١) أما فى مصر والشرق فلم يحفل باحصاء العباقرة

الاختبارات أن فى مكنتهم أن يقرروا مستوى عاديا للذكاء وضعوا له ١٠٠ درجة فاذا كان ثمة شخص يقل ١٠ فى المائة عن المستوى العادى ، قيل إن « نسبة ذكائه » ٩٠ وإذا كان ثمة شخص يزيد ٢٠ فى المائة على المستوى العادى قيل أن « نسبة ذكائه » ١٢٠ وهكذا

وكان الناس فى أول الامر يقاومون فيما يدعونه لاختبارات الذكاء هذه ولا سيما عامة الناس إذا كانوا لايحسنون فهم أسرارها . ولا يزال لواء عليها حتى اليوم أن لانعد هذه النتائج قضية مسلمة . على أنه لاشك فى أن هذه الاختبارات تقيس الذكاء ، وأن نتائجها مرتبطة فى الغالب ارتباطا وثيقا بالنجاح

ولعل أعظم مايسر من الابحاث فى السنين الاخيرة هو محاولة دراسة مستوى ذكاء عظماء الرجال بتقدير « نسبة ذكائهم » فى أيام طفولتهم ، وربطها بالحقائق المعروفة عن كل منهم

وقد جمعت الدكتورة كاترين كوكس بجامعة ستانفورد (وهى الآن الدكتورة كاترين مايلز بجامعة ييل) أسماء ٣٠٠ رجل من عظماء الرجال ممن ولدوا منذ عام ١٤٥٠ ، وجمعت كل مايمكن جمعه من المعلومات عن حياتهم حتى السادسة والعشرين . وقام متخصصون متدربون على اختبار الذكاء بفحص كل هذه المعلومات ، ولكنهم حرصوا حرص العلماء فأبوا أن يقولوا إن النتائج التى وصلوا اليها تدل دلالة صادقة على مستوى ذكاء هؤلاء العظماء حين بلغوا مبلغ الرجال . وكل ما يقولونه إن ذكاءهم لايقل عن المستوى الذى تدل عليه هذه الأرقام

وإنا نورد لك فيما يلى أسماء بعض أعاظم الرجال من مخلدهم التاريخ ونسبة ذكائهم كما تبينت من دراسة الدكتورة مايلز :

٢٠٠ : (هؤلاء يعدون أعظم العقول فى العصور الحديثة) : جالتون ، وجوته ، وجون ستيوارت مل

١٩٠ — ١٩٥ : جروتيوس ، وليبنتز

١٨٠ — ١٨٥ : بيكون ، وملتون ، ونيوتن ، وبت ، وفولتير

١٧٠ — ١٧٥ : تشاترتون ، وكولردج ، ولوثر ، وروبرت بيل ، والكسندر پوب

١٦٠ — ١٦٥ : جون كوينسى أدمز ، وبيرك ، ولوجفلو ، وتنيسون

١٥٠ — ١٥٥ : صمويل جونسون ، ومندلسون ، وموزار ، وجورج صاند ، وسكوت ، ووردسورث

١٤٠ — ١٤٥ : جون أدمز ، وإمرسون ولنكولن ونابليون ونلسون وثكرى ووشنطن

وتقترن العبقرية فى الغالب بتبكير نضج العقل . بيد أن ذلك ليس قاعدة مطردة . فقد درس جون ستيوارت مل الاقتصادى ، اللغة اليونانية وهو فى الثالثة من عمره ودرسها أفلاطون وهو فى السابعة ودرس اللاتينية والهندسة والجبر وهو فى الثامنة وديج كتابا حسن الوضع فى تاريخ روما وهو فى السادسة أو يزيد قليلا . وكتب جوته كتاب آلام فرتر الخالد وهو فى الخامسة والعشرين . وألف ملتون مايعد أجمل شعر غنائى فى اللغة الإنجليزية

وهو فى الحادية والعشرين . وطلع شلنج بفلسفته على العالم وهو فى العشرين ورسم رافائيل صورة العذراء وهو فى الحادية والعشرين . وبلغ بيل رياسة الوزارة فى إرلنده وهو فى الرابعة والعشرين

وثمة بحث هام آخر فى عبقرية العصر الحاضر ، قام به الدكتور لويس ترومان وأعوانه بجامعة ستانفورد

فقد شرع الدكتور ترومان منذ تسع عشرة سنة مضت ينقب عن الذكاء بين أطفال المدارس فى الجهات الواقعة على ساحل المحيط الهادى . فألفى بين آلاف الأطفال الذين اختبر ذكاءهم نحو ١٥٠٠ طفل بلغت نسبة ذكائهم ١٥٠ أو أكثر وظل يتتبع حالات معظم أولئك النباقرة من حين إلى حين وقد وجد أن هؤلاء الأطفال الموهوبين فى مجموعهم يصيبون من النجح فى حياتهم أكثر مما يصيبه زملاؤهم العاديون وأنهم يتزوجون صغارا ، ويقل الطلاق بينهم ويتمتعون بصحة جيدة وأن دخلهم اذا أشرفوا على الثلاثين لايقل فى المتوسط عن ٣٠٠٠ ريال فى السنة وهو أكبر من دخل زملائهم العاديين بكثير . ولعلك تزداد عجبا اذا علمت أن هؤلاء الشبان دخلوا غمار الأعمال فى وقت الكساد التجارى الذى عم أمريكا ومنهم عدد كبير يكسب ١٢٠٠٠ ريال أو أكثر فى السنة على أن أكبرهم سنا لم يزل فى الثلاثين وما بعدها . وقد برز منهم مؤلفون ألفوا عشرين كتابا . ودبجوا مئات المقالات فى المجلات وسجلوا باسمهم ثمانين اختراعا من الاختراعات العظيمة

ولما كبر هؤلاء الاطفال الموهوبون اختاروا لأنفسهم من الأعمال ما كنا نتوقعه لهم . فكان من الرجال المحامون والأطباء والمهندسون ورجال الدين

والمتخصصون في الأبحاث ، ومنهم ممثلو السما وعازفو موسيقى الرقص ومنهم فنان برسم لوالت ديزني وآخر يتفرغ لتربية الثعالب ، وكان من النساء مدرسات وطبيبات وممرضات وموظفات في المكاتب وأمينات للمكتبات وفنانات ومهندسات وممثلات وموسيقيات وراقصات . والعبقريات من الإناث أقل من العباقرة الذكور ميلا إلى الاستمرار في مزاولة ما اختترن . فقد تزوج منهن نحو نصفهن ، وسرن على النهج المألوف في المجتمع المثقف المهذب وترى الإناث منهم والذكور يتزوجون أشخاصا أقل منهم في الذكاء بنحو ٢٥ درجة

ونعل أعجب ما في دراسة الدكتور ترمان أن ٢٤ في المائة من مجموعة عباقرته قد أصابوا من النجاح في الحياة أكثر مما أصابه الباقون ، و ٥٠ في المائة منهم أصابوا نجاحا مقبولا . أما الخمسة والعشرون في المائة الباقية فقد ذهبت ريحهم وبادوا بالخيبة والخسران . وقد تبين أن أفراد الربع الأول من هذه المجموعة يكسبون ضعفين وثلث ضعف ما يكسبه أفراد الربع الأخير وأنهم قد تزوجوا مختارا وأن زوجاتهم أذكى وأن نسبة الطلاق بينهم ثلث ما هي بين زملائهم الخائبين - وتلك هي عناصر الحياة الناجحة . وتجد في الربع الأخير رجالا يشغلون مناصب قليلة الشأن ، فمنهم رجل البوليس والنجار وعامل محطة البنزين وملاحظ المحلات التجارية الخ . فهذا موضع العجب فيا ترى من فرق بين أفراد مجموعتين من عباقرة الأطفال بدأوا الحياة جنبا الى جنب ودلت الاختبارات على أنهم جميعا في مستوى واحد من الذكاء

وقد وجد الدكتور ترمان ومعاونوه أن خير تفسير لهذه الظاهرة هو بيئة

المنزل وأثرها الذى تطبع به شخصية الطفل . فقد وجدوا فى المجموعة الأولى أن نحو ٥٧ فى المائة من الآباء كانوا من اصحاب الحرف الذين يكسبون من المال قدرا يكفل لأولادهم بيئة مستقرة رادعة . أما أفراد المجموعة الأخيرة فقد وجد الباحثون أنهم يأتون فى الغالب من بيئات يتنابها الفقر والشقاء وعدم الاستقرار . وكان أكثر آبائهم من الأجانب مولدا . فهم فى صراع لاينقطع مع حضارة غريبة عنهم فمن أجل ذلك فقدت البيئة فى نظر أبنائهم العبقرة

وقد وجدت الدكتورة مايلز فى الحقائق التى جمعتها من العبقرة . الثلثمائة الذين اختبرتهم أن ثمة صفات عامة مشتركة بينهم جميعا تقريبا . فكلهم من « أصل كريم » وآباؤهم على حظ كبير من الذكاء وقد عاش معظمهم فى جو من الاستقرار والمحبة وحسن التفاهم فى غير الحياة . وتقول الدكتورة مايلز إن العبقرية فى العالم كله تقريبا تتصف بالعطف والأمانة والشعور بالواجب والثبات على المبدأ وبنشاط الجسم والعقل وبالتواضع وقلة الميل إلى اللهو وبهدوء الطبع . والعبقرية ترتفع بصاحبها إلى مافوق عامة البشر لاختصاصه بهذه الصفات كما ترتقى به إلى مافوق مستواهم فى الذكاء

وأخيرا . ما الذى تكشفت عنه أبحاث الدكتور ترمان والدكتورة مايلز مما يفيد المجتمع ؟ تظهر هذه الأبحاث أن الذكاء الممتاز فى الغالب هبة يحملها صاحبها منذ يولد إلا أننا نستطيع بالتعليم الصحيح أن نجعل من أرقى عناصر العبقرية الكامنة عبقريا حقيقيا ينتفع البشر بمواهبه . ولعل أهم العوامل فى تحقيق ذلك أمران . الأول : الحافز المشجع أو الحياة فى مجتمع يريد القدرة البالغة ويقدرها حق قدرها . والثانى الشعور بالثقة والاطمئنان

منذ بكر الحياة . وقد ثبت علميا الآن أن العبقرية لا تستلزم الغرابة والخروج على المألوف كما يظن أكثرنا ، وأن الشيء الذي يسمونه « المزاج الفني » ما هو إلا خصلة من خصال طفل أفسده التدليل نقلها الى عالم الرجولة شخص موهوب مرهف الاعصاب وقد تبين له أن في طاقته أن يعيش بها بين الناس سالما من أذاهم ، ولو له كان خليقا أن يكون أقرب إلى العبقرية الخالصة بغير هذه الخلقات والنزوات التي يأتيها أو يتخلق بها

والدرس واضح وله خطره ، فإننا ولا شك في حاجة إلى هذه العقول النادرة التي لا تكون إلا بنسبة واحد في كل مائة ألف . ويجدر بنا أن نلتمس خير الوسائل للعثور على هؤلاء الأفذاذ وأن نعنى بهم العناية الكافية وقد نقضت الابحاث العلمية ذلك الرأي الذي يزعم أن القدرة الفذة تنمو وتزدهر في جو القلق والخوف والشقاء . واذا خيل الينا أنها تنمو في مثل هذا الجو فان مرد ذلك إلى أن الشخص الموهوب يتغلب على ما يلاقي من عقبات

وليس معنى هذا أن ليس ثمة حاجة الى قدر معقول من الفقر والنظام الشديد فان حياة الكثيرين من عظماء الرجال توحي بأن ذلك عنصر لا بد منه ولكن ليس من المحتوم أن يكون الفقر مقرونا بالقلق وعدم الاستقرار

وان ما يصدق على العباقرة يصدق على سائر الناس أيضاً فان ذكاء الرجل العادي وشخصيته يأتيان بخير النتائج في ظلال الأحوال الحسنة المواتية . وقد يبدو هذا بديهيا ، بيد أن الآباء والمعلمين لا يدركونه إدراكا تاما . ولقد زودنا العلم اليوم بسبب عاجل لتعبئة عقولنا للعمل على توفير أعظم قدر من الدربة والخبرة النافعة والطمأنينة لأفراد الجيل الناشيء الجديد

الزعامـــة والزعماء

عودتنا الطبيعة أن ترينا في كل مجموعة من المجموعات — من يحتل مكان الصدارة منها . ويتميز بصفات خاصة عن سائر أفرادها(١)

ففي النبات ، في كل مجموعة نبتة رائعة تسترعي الأنظار اليها بسمو في نموها ، أو بازهارها زهرة تميزت بالجمال ، وفي البستان سرعان ما ترى شجرة فاقت أقرانها بجمال استوائها أو علوها وتفوقها أو بكثرة أثمارها أو حلاوة ثمرتها والكل يزرع في أرض واحدة ويسقى بماء واحد

وهذا في عالم الحيوان انظر فكل خلية نحل لها ملكة تأمر فتطاع ، وتدعو فتجاب :

ملكة مدبرة بامرأة مؤمرة
تعمل في العمال وال صناع عمه السيطرة
فاعجب لعمال يوا ون عليهم قيصرة

وفي كل قطيع خروف متميز ، وفي كل عش دجاج ديك متفوق فاذا أتيت الى الانسان فالأمر فيه أبين : في كل مجتمع رئيس ، بدو أكانوا أو حضرا اطفالا أو كبارا رجالا أو نساء تجمع الطلبة في الفصل فيكون لهم في الذكاء أول ، وتجمعهم في الالعاب الرياضية

(١) مقال أحمد أمين بك ، الثقافة ،

فيكون بينهم فى ألعابهم ماهر وتجرى بينهم سباقا فى اى ضرب فيكون منهم الفائز وفى البدو شيخ القبيلة وفى الحضر الامير وفى الديانة الشيخ والقسيس وفى الحكم المدير والوزير وفى شئون الاجتماع المصلح وفى السياسة الزعيم

وإذا كان هناك تفوق ورياسة فذلك يستلزم سلطة وسيطرة من جانب وخضوعا وطاعة من جانبه

ومخايل السيطرة والسيادة كثيرا ماتبدو فى الأطفال منذ نشأتهم كالذى روى أن رجلا نظر إلى معاوية وهو غلام صغير فقال : إنى ارى هذا الغلام سيسود قومه . فقالت امه هند : ثكلته ان كان لايسود إلا قومه

وقد تكون هذه من وراثة يرثها كالبذرة الطيبة تختار لتثمر ثمرا طيبا وتأتى البيئة فتنمى هذه الوراثة ويغذيها ، وقد تسوء فتضعفها أو تفنيها فمنزلة الطفل فى الأسرة لها اثر كبير فى تقوية خلق السيطرة او إضعافها ، فقد يكون الطفل اول ولد لأبويه ثم يرزقان بطفل آخر فيحولان عطفهما وتدليلهما اليه فيثور الأول ويجتهد ان يوجه النظر اليه بعنفه وثورته وسطوته ، فينشأ عنده حب السيطرة ثم تساعده الظروف الأخرى خارج البيت كمهارته فى اللعب او اوليته فى فصله أو نحو ذلك فيعود كل ذلك الى السيطرة فى الحياة ، وقد يقسو الأب والمعلم على الناشىء فيدفعه ذلك الى مقابلة القسوة بالقسوة ، فيتولد

عنده حب السيطرة وقد تزيد قسوة الاب او المعلم فتميت نفس الناشيء وتذله. وهكذا مئات ومئات مما يجرى فى الحياة — من كتاب يقرؤه ودين يتدين به واصدقاء يعاشرهم وعمل يتولاه وروايات يراها وشعر يحفظه الخ — كلها تؤثر فى مصيره من السيطرة او الخضوع

والزعيم يتفاعل مع بيئة فتمكنه ويكونها وتخدمه ويخدمها وبعض الناس قد منح من القوة ما يمكنه من الزعامة حيثما حل واين رميت به كالذى يصفه المتنبي :

ان حل فى فرس ففرس فقيها ربها(١)
كسرى تذل له الرقاب وتخضع
او حل فى روم ففيهـــا قيصر
او حل فى عرب ففيها تبع

وليست كل سيطرة زعامة ، فهناك سيطرة بحكم المنصب كالمأمور فى مركزه اوالمدير فى مديريته او الوزير فى وزارته او القائد فى جيشه فهذه كلها لاتخول لصاحبها ان يسمى زعيما

وهناك سيطرة بسبب الملكية كسيطرة مالك الارض على فلاحيه او صاحب المصنع على عماله

(١ أى فهو فيها ربها وكسرى بدل من ربها وكذلك قوله ففيها قيصر وفيها تبع أى فهو فيها قيصر وتبع

وهناك سيطرة بسبب نظام الطبقات كسيطرة ذوى البيوتات الكبيرة على ذوى البيوتات الصغيرة وسيطرة الباشا على من هم أقل منه مرتبة أو الموظف فى الدرجة الأولى على من فى الدرجة الثامنة او نحو ذلك .فهذه كلها ليست زعامة ،إنما ركن الزعامة هو خضوع الجم الغفير من الناس بإرادتهم واختيارهم لمزايا خاصة يرونها فى الزعيم

والصفات التى تستوجب الزعامة تختلف باختلاف نوع الزعامة فهناك زعامة سياسية وزعامة علمية وزعامة دينية وزعامة حربية الخ ، كما أنها تختلف باختلاف الجماعات وتصورهم للمثل الأعلى محياة ، فلما كان عند العرب — مثلا — المثل الأعلى عماده الشجاعة والكرم كانت الزعامة عمادها هاتان الخصلتان . وقد قال عمر : « السيد هو الجواد حين يسأل ، الحليم حين يستجهل ، البار من يعاشر » فجعل السيادة فى الكرم والحلم والعطف وعدوا سلم بن قتيبة سيداً « لانه كان يركب وحده ويرجع فى خمسين » فجعلوا السيادة فى الشجاعة ، كما جعلوا من شروط السيادة صفات سلبية كالترفع عن الصغائر فقالوا : « لا سؤدد مع انتقام » الخ . واليوم تعد من أهم صفات الزعيم الذكاء وسعة العقل والثقة بالنفس والرحمة بالناس والعطف عليهم والقدرة على ابتكار الخطط وحب العدل والفصاحة فى القول مع القدرة على الدعابة ، هذا الى الصبر على الشدائد واحتمال المكروه ، فلا زعامة من غير عناء كما يقول الشاعر

أرجو أن تسود ولا تغنى وكيف يسود ذو دعة بخيل ؟

ويختلف الزعماء فى تفوقهم فى هذه الصفات أو بعضها ونسبة تفوقهم فيها وقد يفقدون بعضها ويعتاضون عنها بتميزهم فى بعضها الآخر ، وهكذا

ثم ان هذه الصفات قد يتصف بها الزعيم حقا ويتخلق بها صدقا ، وقد يتصفها رياء فلا تنطلى إلا على رأى عام لم ينضج وشعب لم يكتمل

كذلك الزعماء أشكال وألوان : فهناك الزعيم الضاغط المتحكم الذى يضطر الجمهور أن يؤمن به وأن يتوجه كما يوجهه ويسد عليه منافذ تفكيره ومنافس مشاعره ، ثم يدفعه دفعا إلى مايريد هو ، مثل هتلر وموسولينى وبعض مؤسسى المذاهب الدينية — وهناك الزعيم الذى يمثل عواطف الجماعة ومشاعرها ، فيكون للجماعة آمال ومشاعر فيها شىء من الغموض وشىء من الميوعة ، فيأتى هو ويوضحها ويمثلها ويبلورها ، ويكون لسانها القوى فى التعبير عنها وقلبها الحساس الذى ينبض بأمانيها ويكون هذا سر زعامته . والزعماء اصناف : منهم المهتدل والقهور والعالم والجاهل والشجاع والمرائى . ولكل زمن وجيل مايلائمه من هذه الصفات

ان الزعامة ترمى الى قيادة الجماهير وهى عمل من أشق الامور وأصعبها ، لأن الجماهير — عادة — تخضع للعواطف والانفعالات الوقتية

أكثر من خضوعها للعقل والتفكير الهادىء المتزن ولذلك قد تتحول من عاطفة الرحمة إلى القسوة العنيفة فى لحظة وهذا هو السر فى أن الزعيم الثائر الهائج المشبوب العاطفة أنجح فى قيادتهم من الزعيم الهادىء المفكر

ومن ثم كانت العلاقة بين الزعيم وأتباعه من أدق العلاقات وأكثرها تعرضا للخطر . فالزعيم دائما فى الميزان ، كل كلمة منه وكل فعل يصدر عنه وكل كلمة او فعل من مؤيديه او معارضيه تؤثر فى ميزانه بالرجحان او عدمه

ولشخصية الزعيم أثر كبير فى هذه العلاقة ، فلكل زعيم صورة تنعكس فى خيال أتباعه وتؤثر فيهم وكثيرا مايضيف الأتباع إلى هذه الصورة خيالات واوهاما من عندهم يخلعونها على الزعيم وقد يعتقدها هو أيضاً فى نفسه ومن ثم كان التفاعل بين الزعيم وأتباعه تفاعلا قويا

والمثل الأعلى للزعيم السياسى يختلف باختلاف العصور والبيئات وهو فى هذا العصر - فى الأمم الديمقراطية - يتكون من عناصر أربعة لابد منها جميعا ليكون الزعيم زعيما حقا . وهى : الأمانة والشجاعة والذكاء والتعاطف مع الناس

فأما الأمانة فلسنا نعنى بها ألا يسرق ولا يخون ولا يرتشى ، فهذه أمور تطلب من كل فرد فى الأمة مهما حقر شأنه ، تطلب من الموظفين الصغير والتاجر الصغير وكناس الشارع والفلاح الفقير . إنما تطلب

من الزعيم الأمانة بمعنى أدق وأرقى ، وهو أن يكون جادا صادقاً مخلصاً في فكره وقوله وعمله ، فهو ليس أميناً إذا أخفى الحقائق عن امته او راءى وتظاهر بما ليس فيه ، كما انه ليس امينا إذا اغمض عينه عن خيانة يرتكبها المقربون اليه أوراعى اسرته اوحزبه على حساب امته الأمانة في الزعيم السياسي هي ألا يسمح لعقله ان تسكن فيه فكرة الا اذا اعتقد انها حق ولا يجري على لسانه قول الا الحق ولا يصدر منه عمل الا اذا آمن بنفعه - فإن لم يتوافر فيه هذا العنصر فهو زعيم مزيف . أما الشجاعة فلا بد له منها في كثير من المواقف ، فقد يضلل الشعب بشتى الأضاليل ، فيحتاج الزعيم أن يجاهر بما يعتقد ولو اغضب أتباعه ولو اغضب الرأى العام ، لأنه ليس تابعاً للرأى العام ، بل هو قائده ومرشده ، يخاصمه احياناً اذا رأى الخطأ في اتجاهه ، وقد يخاصم الحكومة في تشريعها الضار او تصرفها السيء فيحتاج الى الشجاعة ليهاجمها ويثور عليها . ليس الزعيم الشجاع هو الذى يعيش على التملق للجماهير وكسب إعجابهم بالحق اوالباطل والكلام بما يسرهم ويرضيهم انما الزعيم الحقيقي هو من له من الشجاعة الأدبية ما يمكنه من ان يسمعهم الكلام المر اذا اقتضى الحال ، ويخالفهم ان رآهم على ضلال ، ويقومهم ان اعوجوا ، ويدعوهم الى الصراط المستقيم ان انحرفوا ، ولو عرضه ذلك لفقد زعامته وتشويه سمعته

ثم لابد للزعيم من ذكاء ممتاز يدرك به الحقائق ولو بعد ادراكها

وهو فى عصرنا هذا عنصر أساسى اكثر مما كان قبل ؛ لأن الحياة الاجتماعية تعقدت وظروف الامة تعمل فيها عوامل مختلفة خفية وظاهرة والمنافع والمضار على أشد ما يكون من الاشتباك ، وليست أية امة بمعزل عن العالم ، فهى نقطة من محيطه تتأثر بما يجرى فيه . وليست العوامل الداخلية بأقل تعقدا من العوامل الخارجية ـ كل هذا يتطلب ممن تصدر للزعامة ان يكون له من الذكاء ما يدرك به هذه الشؤون المعقدة ادراكا صحيحاً ليبنى عليه حسن تصرفه

ثم ان علماء النفس اليوم يقسمون الذكاء اقساماً وينوعونه انواعا فهناك الذكاء فى فهم النظريات والمسائل المجردة كذكاء الفلاسفة والجامعيين . وهناك الذكاء العملى ، والزعيم السياسى احوج الى هذا النوع العملى ، وهو ادراك العلاقات الواقعية للمسائل والاشخاص وهو ذكاء مكتسب من التجارب اكثر مما يستفاد من دراسة النظريات وعمق التفكير ، هو ذكاء كالذى يكسبه المهندس من كثرة ممارسته ، والطبيب ـ بعد دراسته ـ من طول مزاولته . فالزعيم السياسى فى حاجة قصوى الى ذكاء عملى يفهم به عقلية الناس الذين يعاملهم ويتزعمهم ويعمل لهم وكيف يساسون ووسائل اقناعهم وتوجيههم ومواطن القوة والضعف فيهم ، فان لم يدرك ذلك واكتفى بالنظريات وفهمها اخفق اخفاق المحامى الذى يقتصر على دروس المدرسة ، او الاقتصادى الذى فهم النظريات ولم ينزل السوق

وأخيراً لابد من عنصر « العطف » أسمى شعور الزعيم بأواصر الأخوة بينه وبين من يتزعمهم ، ولا يكون ذلك مجرد قول يقوله أو يتعلق الجمهور به . انما هو شعور صادق يتغلغل فى نفسه ويفيض على أقواله وأعماله . يشعر بعذاب الناس وآلامهم وآمالهم كما يشعرون بل أكثر مما يشعرون ثم يشعر لهم — بحكم صدق هذا الشعور — على أن يسير بهم الى الغرض الذى ينشد وينشدون لا أن يستخدمهم فى تحقيق مصالحه الشخصية وأغراضه الذاتية — بهذا العطف يستحلى العذاب فى خدمة الامة ويهزأ بالمتاعب فى سبيل تحقيق الغرض وبدونه يكون أنانياً جافا ، ان خدع الناس حيناً فلابد أن ينكشف عاجلا او آجلا . اذا ملأ الزعيم هذا الشعور استساغ التضحية واستعذبها . وإلا كان شرها فى كسب الخير لنفسه من وجوهه المختلفة

سر الشهرة فى أربعة دروس

يقول « تشارلس روث » قدم رجل إلى بلدنا « غريبا » يعول زوجة مريضة لايحترف عملا يرتزق منه ولا يملك نقودا تستحق الذكر إذ استنفدت أجور الأطباء والمستشفيات طيلة أعوام عديدة كل ما يملك . ولم يكن فى بلدتنا مكان شاغر له إذ كان فيها مئات من يجيدون نوع عمله . وكان البعض منا الذى صادفه أثناء الأسابيع الأولى لاقامته بين ظهرانينا يرثى لحاله ويعجب هل كان الرجل واجداً بابا للرزق

ولقد وجد الرجل بابا للرزق وما كان لنا أن نعجب فلم يكد ينقضى عام

أو عامان حتى كان الرجل قد أسس مركزا ستينا فى بلدتنا . وأخذت أسمعها فى الصعود منذ ذلك الوقت

وعند مازادت معرفتى به وثوقا تبدى لى السبب فى ذلك جليا واضحا . كان الرجل عبقريا فى جعل نفسه محبوبا من الآخرين . ولما درسته ألفيته يتبع خطة بعينها

ولما كنت أنت ولا ريب ستفيد من معرفتها فدعنى أذكر لك ذلك الأسلوب الذى كان يتبعه :

١ — مقدرته على استيعاب الأسماء ، وقد يحدث أن يتعرف بعشرة أشخاص فى آن واحد ولكنه كان يذكر اسم كل واحد منهم . وقد أخبرنى أنه درب نفسه على ذلك تدريبا كافيا كما كان يفعل نابليون الثالث كما قدمنا

٢ — كان يستوعب كلماتهم وتلك وسيلة قديمة لاكتساب ود الناس . احفظ كلماتهم التى يحدثونك بها ثم ذكرهم بها عند ماتقابلهم للمرة الثانية . فقد كان صاحبنا يفعل ذلك

٣ — اهتمامه بالناس إذ أنه لم يكن كثير المشاغل كما هى حال الغالبية منا فلم يكن كل تفكيره وحديثه منصبا على نفسه غافلا كل اهتمام بغيره . بل كان يسأل الناس ويستفسر منهم عن نواحى اهتمامهم ، ويستوعب كل ذلك فى ذكرته

٤ — كان يصغى كل الاصغاء عند مايحادثه الناس . وفى رأيى أن تلك الصفة هى أثمن درة فى تكوين الشخصية . فاكثرنا كما تعرف لاينقطع عن التفكير فى نفسه طيلة الوقت حتى أننا لانلق إلا بأيسر جانب من المبالاة إلى حديث غيرنا من الناس . أما ذلك الرجل فقد كانت قابليته على الاهتمام

بحديث الغير فذة فى نوعها . لم يكن يتثاءب قط أو تبدو عليه الملالة أو يقاطع أحدا أثناء حديثه معه

حقا إن خطته لم تكن تعدو كونها ضربا على وتر الغرور عند الناس . ولكن مافى ذلك من بأس فقد قال لى رجل حكيم يوما : « إن المعيشة الرضية هى أن تعرف أنت على مواضع الغرور منى ، وأتعرف أنا على مواضع الغرور منك ، وأنا أعرف أن هذا الرجل يغنى من وراء طريقته ربحا طائلا

الزعامة العسكرية

نشرت مطابع جامعة اكسفورد أخيرا كتيباً يتضمن محاضرة ألقاها النيلد مارشال مونتجمرى عن الصفات التى تخلق كبار الزعماء العسكريين والاحوال النفسية التى يعملون تحت تأثيرها فكان من رأيه أن الشغف بالمجد العسكرى وشهوة التسلط والسيطرة يوجدان دائما فى طليعة تلك الصفات والاحوال

ولو أن قائداً غير بريطانى له فى بلاده مثل ماله هذا القائد الكبير فى بلاده من المنزلة الرفيعة وفى الحرب الماضية ماله فيها من الاثر لكان الراجح أن تكتسب آراؤه « قوة الاشياء المحكوم بها » وتعد حاسمة فى موضوعها (١)

أما فى بريطانيا فلا يعترف البريطان بشىء على مايظهر بمثل هذه القداسة ومن هنا ماان نشر الكتيب حتى تصدى لنقد آراء المحاضر الكبير شيخ الكتاب البريطانيين ـ الكاتب الاشهر برناردشو الغنى عن كل تعريف وتقديم

(١) الدنيا الجديدة .

وقد كنا نود أن ننقل لقرائنا آراء القائد الكبير فى هذا الموضوع الظريف ثم نتبعه بنقد الكاتب العظيم ولكننا لم نعثر على الكتيب فى أية مكتبة فآثرنا أن ننقل اليهم النقد بعد أن أشرنا فيما تقدم إلى جوهر الآراء المنقودة وجماعها

يقول شو فى فاتحة نقده (نقلا عن رينولدز نيوز) : من دواعى الاسف أن لا يكون بين عباقرة الحرب الا أقلية ضئيلة من عباقرة البيان . فقد كان القائد العسكرى الكبير مارلبورو مثلا أعجز الناس وأخيبهم اذا امسك القلم، ولكن على خلاف ذلك كان قيصر ونابليون وولنجتون وكذلك مونتجمرى فانهم من أمراء السيف والبيان . أما الطموح الى المجد العسكرى والرغبة فى التسلط والسيطرة ، فلا يستوى فيهما القادة المظفرون. ولهذا لانستطيع أن نتفق مع المارشال مونتجمرى على عدهما من المواد الأولية التى تبنى منها العظمة العسكرية

ولكى نزيد هذا المعنى وضوحا نضرب مثلا بارزا لاشك فى أنه يقع من أكثر الناس موقع الدهشة والعجب . فكثير من المؤرخين الحربيين يعزو الشغف بالمجد العسكرى والرغبة فى التسلط الى نابليون بونابرت فيخيل لهم أنهما من عناصر نبوغه الحربى . وعندى أن الشغف بالمجد العسكرى فى حالة نابليون جاء نتيجة لاضطراد الظفر لا أساساً له وان الدفاع عن النفس لا الرغبة فى السيطرة هى الحالة الحقيقية التى كان يعمل تحت تأثيرها هذا القائد العظيم

وبيان ذلك أن مواهب نابليون العسكرية أو ان شئت فقل مواهبه الرياضية قد برزت وتألقت وهو دون الحادية عشرة التي ألحق قبيل أن يبلغها باحدى المدارس الحربية. ولم يكد نابليون يلتحق بهذه المدرسة حتى أظهر من القدرة على استيعاب العلوم الحربية وقواعد الخطط العسكرية (التكتيك) التي كانت مقررة في القرن الثامن عشر وعلى هضمها أيضا ، ما أزعج أساتذته بل ما حمله هو ، وقد كان مبكر النضج ، على أن يحاول ستره رغبة منه في تجنب إشغال بيئته بنفسه واثارة الحسد في نفوس زملائه حتى يستطيع أن يتفرغ لا لمجرد درس تلك العلوم والقواعد بل قد بترتيب نتائجه الخاصة عليها للمؤهلات فمؤهلاته الطبيعية هي أساس عظمته العسكرية وكان من الطبيعي أن يتولد الشغف بالمجد العسكري من هذا الازدواج. وعلى هذا نجد أن هذا الشغف ثمرة لا بذرة

ومن ناحية أخرى كان معظم الحروب التي أثارها دفاعية في الحقيقة . أما مبادرته الى الهجوم على أعدائه قبل ان يهجموا عليه فهي طريقة في الدفاع ، والواقع أنه لم يكن هو بالذات مبتكر هذه الطريقة التي صارت بعده قاعدة مقررة من قواعد الفن العسكري ولكن لاخلاف في انه كان امهر مطبقيها واقدرهم على هذا التطبيق في جميع الظروف والأحوال . فالدفاع لاحب التسلط والسيطرة هو الذي شحذ مواهبه الحربية. وهو اشد منها حفزا لهذه المواهب. على

أن هذا كما لا يخفى لا يحتاج الى بيان . كذلك لا نحتاج الى ان نبين ان فرنسا كانت هدفا لهجوم الدول الأوروبية عامة وبريطانيا خاصة منذ انفجر بركان الثورة الفرنسية حتى عقدت معاهدة برلين . وليس الذنب ذنب نابليون إذا كان ضمان امن فرنسا قد اضطره الى ان يبسط سلطانه على كثير من تلك الدول

وليس أحد إلا يعلم ان حملة نابليون المشئومة على روسيا كانت حملة دفاعية أراد منها أن يعجز تلك الدولة عن مهاجمته لا أن يحكمها ويتسلط عليها

وننتقل من نابليون الى ولنجتون وواشنطون وهما من أعظم القادة الحربيين :

فأما أولهما فقد حارب نابليون فى اسبانيا أولا ثم فى بلجيكا أخيرا وما كان يخطر له أو حتى لبريطانيا خاطر التسلط على اسبانيا أو فرنسا أو بلجيكا . وأما ثانيهما فما خطر له هو أو بلاده خاطر التسلط على بريطانيا . وإذا جئنا بعد ذلك الى المجد العسكرى يبين انهما ما كادا يغسلان أيديهما من العمليات العسكرية حتى اعتزلا الحرب وقد جزعت وفزعت نفساهما من فظائعها ومذابحها ، وارتدا رجلين من رجال السياسة حينا ثم لم يلبثا ان اعتزلا السياسة أيضا وقبع كل منهما فى مزرعة له يعيش فيها عيشة أعيان الريف زاهدا فى كل مجد عسكرى وكل نفوذ سياسى .

يتبين اذن ان العظمة الحربية ترجع فى مردها إلى المؤهلات الطبيعية أولا ثم الى الظروف التى تتيح لهذه المؤهلات استيعاب قواعد الفن

الحربى والتضلع فيها أى الى التعليم الجيد ثم الى الملابسات التى تحفز هذا العبقرى العالم الى تطبيق فنه الى أقصى ماتطيقه عبقريته ونبوغه من الاجادة أى ضرورة الدفاع عن الأوطان أو الحريات ، أو ان شئت فالضرورة الوطنية عامة .

وليس معنى هذا أننا ننفى الشغف بالمجد العسكرى أو نخرج حب السيطرة من الموضوع ولكن معناه ان يوضع فى البيت كل شىء فى مكانه وضعا طبيعيا بمعنى عدم الخلط بين المقدمات والنتائج ولا بين الثمرات والبذور . ومع ذلك فمن الواضح أنه لابد من وجود مقدمات ونتائج وثمرات وبذور .

وقد يكون اهم من هذا كله فى ظروفنا الحاضرة ان نقول ان المواهب العسكرية العظيمة يوجد فيها دائما عناصر قيمة من السياسة السياسية وان الادارة الحازمة قد لاتتوافر لرجال السياسه والادارة انفسهم ، والذين يصلون منهم الى مناصب الرئاسة من الطريق الديمقراطى القائم على النظام الانتخابى والنظام الحزبى خاصة . فقد مضى على انتهاء الحرب العالمية الاخيرة بضع سنوات لم يستطع فيه رجال من هذا الطراز ان يفعلوا شيئاً يريح العالم من بعض ما اعقبته الحرب من المعضلات والمشكلات ، بل لعلى ان اخطىء إذا قلت انهم لايفعلون اكثر من زيادة تلك المشاكل صعوبة وتعقيدا